تنقيبات

طقوس الدفن في ريف دمشق خلال العصر الروماني البيزنطي

مدافن منطقة داريا نموذجاً



د. محمود حمود
المديرية العامة للآثار والمتاحف

ما زالت المنشآت الجنائزية الكلاسيكية الموثقة في سورية عموماً وفي دمشق وريفها خصوصاً قليلة وشبه نادرة، رغم أن كل بقعة في سورية تزخر بالمدافن بمختلف أشكالها. وإذ جرى التركيز سابقاً على مدافن تدمر ومنطقة حوران وجنوب سورية لأهميتها وغناها المادي، فقد كانت الصدفة دائماً هي التي تقف وراء اكتشاف العديد من المدافن غير المنهوبة والمبعثرة هنا وهناك. ويبقى عدم نشر نتائج التنقيبات بكل جوانبها وتفاصيلها، وإن كانت غير منهجية بالشكل الأمثل، نقطة ضعف تسجل على المنقبين الوطنيين، لأن كل ما لا ينشر يضيع، خاصة مع كثافة هذا النوع من التنقيبات الطارئة غير الموسمية، وتتحول بالتالي مهمة الآثاريين الوطنيين لقطف الكنوز وإيداعها مستودعات المتاحف لينال منها ومن بقائها سوء التخزين وسوء الحفظ وفوضى التصنيف التي تلف مستودعاتنا الأثرية في أغلب المحافظات مع الأسف. فطيلة العقود السابقة لم يصلنا إلا بضع دراسات عن مدافن جرى اكتشافها في منطقة دمشق، منها دراسة عن مدفن نقبه علي أبو عساف في بلدة الطيبة (قرب الكسوة)، خلال فترة الستينيات[1]، ودراسة لقاسم طوير عن عشرة مدافن في منطقة باب السريجة والقنوات(خلف القصر العدلي)، شاركه التنقيب فيها نسيب صليبي خلال نفس الفترة[2]. وهناك دراستان لمجموعة مدافن وتوابيت عثر عليها في بلدتي دمر غرب دمشق، والمليحة شرق دمشق، قام بالكشف عنهما ميشيل المقدسي في فترة ثمانينيات القرن الماضي[3].

ومؤخراً أجرت دائرة آثار ريف دمشق، بعض أعمال التنقيب (جرى نشر العديد منها)، في بلدات حينة، وبيت سابر، والضمير والرمدان وعين منين والتل وزاكية والحرجلة ودورين وجديدة يابوس وغيرها. كما أجرت المديرية العامة، وكذلك دائرة آثار دمشق القديمة، أعمال تنقيب عن عدد من

المدافن قرب مبنى جامعة دمشق[4] وفي حي المجتهد وغيره[5].

وقد قدمت منطقة داريا مؤخراً عدداً من المدافن الأثرية، التي سلطت الضوء على هذه المنطقة وأظهرت أهميتها الاقتصادية والاجتماعية خلال العصور الكلاسيكية. ويمكن القول، وبتواضع شديد، أن هذه المنشآت الجنائزية المكتشفة رفدت علم الآثار السوري بمعطيات مهمة سواء بالنسبة لعمارة المدافن وأشكالها، أو بالنسبة للطقوس والممارسات الجنائزية المختلفة، هذا إضافة إلى مجموعة اللقى الغنية التي لاشك أنها تشكل مجموعة متحفية مميزة جداً على مستوى القطر.

ولم يكن لهذه الاكتشافات أن ترى النور لولا التعاون الوثيق بين السلطات الأثرية في ريف دمشق والمجلس البلدي والمواطنين أصحاب العقارات، الأمر الذي أدى لمراقبة مستمرة لكل أشكال الحفر والتجريف في البلدة القديمة، أثمرت هذه النتائج الإيجابية التي وصلنا إليها. ونذكر ذلك لعلمنا أن الكثير من المكتشفات الأثرية في البلدة ومحيطها تعرضت خلال الفترات السابقة للإزالة أو تم دفنها تحت الأبنية الحديثة، لخوف الأهالي من التعاون مع السلطات الأثرية، وعدم قدرة هذه السلطات، في حالات كثيرة، على الوقوف في وجه المد العمراني والاستثماري المتنامي، الذي ابتلع الأخضر قبل اليابس، رغم وجود ممثل دائم لها في لجان التخطيط الأقليمي في كل محافظة سورية.

ـ نبذة عن تاريخ داريا:

تتوضع مدينة داريا في موقع استراتيجي بالغوطة الغربية التي يرويها نهرا بردى والأعوج على بعد 7 كم ، جنوب غرب دمشق على ارتفاع 650 م عن سطح البحر.

جاء اسم داريا من اللغة الآرامية بمعني الدار أو المسكن، وقد ظل يستخدم كذلك خلال العصور الكلاسيكية حيث ذكرته المصادر الكلاسيكية المتأخرة ومنها رسالة أرشمندريت كنيسة الولاية العربية سنة 570 م والموجهة إلى الأساقفة الأرثوذكس، إذ كان الموقع مقراً لعدد من الأديرة المسيحية، التي سكنها العرب الغساسنة، المرتبطين بالدولة البيزنطية، الذين ناصروا الدين الجديد وبشروا به بشدة على المذهب اليعقوبي.

في هذا العصر (الروماني المتأخر والبيزنطي) قسمت سورية الجنوبية إلى ولايتين، فألحقت أقسام كبيرة من حوران بالولاية العربية وعاصمتها بصرى، أما المناطق الشمالية المتاخمة بما فيها دمشق، فكانت تابعة إلى لما عرف بفينيقيا اللبنانية، التي اتخذت من إيميسا / حمص عاصمة لها، وكانت داريا ومحيطها واقعة فيها.

في العصر الإسلامي الباكر ورد ذكر داريا ضمن سياق تمرد ضد الحاكم الأموي الوليد الثاني (743 / 744 م). وبعد ذلك قام الشخصية الصوفية أبو سليمان الداراني بالتدريس فيها وبعدما توفي (سنة 835 م) أصبح قبره هدفاً للزيارة، ثم تحول إلى ضريح في القرن الثاني عشر أيام نور الدين الزنكي. وعسكرت فيها مراراً العديد من الجيوش الأجنبية التي حاصرت دمشق ومنها الفرنجة سنة 1149 - 1157 م.

أقدم آثار الاستيطان البشري المعروفة بمنطقة داريا جاءت من تل شواقة الواقع إلى الشمال الغربي من بلدة أشرفية صحنايا الذي يعود تاريخه للألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، وهو التل الذي اكتشفناه (عام2008)من خلال بعثة المسح الأثري في دائرة آثار ريف دمشق. بعد ذلك تغيب المعطيات الأثرية حتى العصر الروماني الذي وصلنا منه تمثال منحوت من الحجر الرخامي المائل للصفرة يمثل أمرآة تحمل طفلها الرضيع، وهو الاكتشاف الذي يقدم دليلاً على وجود موقع سكني(شبه مدني) بجانب مدافن

الصورة رقم ١

البلدة القديمة العائدة للعصر الروماني. (الصورة1) كما عثر على حجر لفصل حدود الملكيات الزراعية بين أراضي داريا وبلدة المزة (يعود للقرن الرابع). كما توجد بعض أقنية الري التي تنسب للعصر الروماني والتي كانت ما تزال مستخدمة حتى فترة قريبة، وأهمها قناة الوز (المسجلة أثرياً) والقادمة من صحنايا إلى السبينة عبر داريا.

بلغ عدد المدافن المكتشفة عشرة مدافن أحدها إفرادي، والباقي جماعية. عثر على سبعة منها قرب مدرسة الكشكة،[6] (اكتشف أولها عام 2005 والثاني عام 2007 والخمسة الباقية عام 2010)، واثنان قرب الصالة الاستهلاكية في حارة الحمام. كما تم الكشف عن مدفن جماعي آخر مؤلف من ثلاثة قبور قرب بلدة الأشرفية جنوب قناة الوز، ومدفن آخر داخل الأشرفية. ورغم تعرض بعض هذه المدافن للتخريب والنهب إلا أننا استطعنا توثيقها مع محتوياتها بشكل معقول.

أولاً- مدافن داريا[7]:

وجد في داريا نموذجان من المدافن، النموذج الأول: وهو الأكثر شيوعاً، عثر على سبعة منها في داريا القبلية (الصورة2) واثنان في حارة الحمام وقد حفر في تربة قاسية من نوع (الكونغلوميرا) أو من الصخر الكلسي، وهي نواويس تتكون من حجرة على شكل مغارة مقببة قطرها يبلغ 3,5م أو يزيد، سقفها شبه منحني، تتوضع على عمق يزيد عن المتر عن

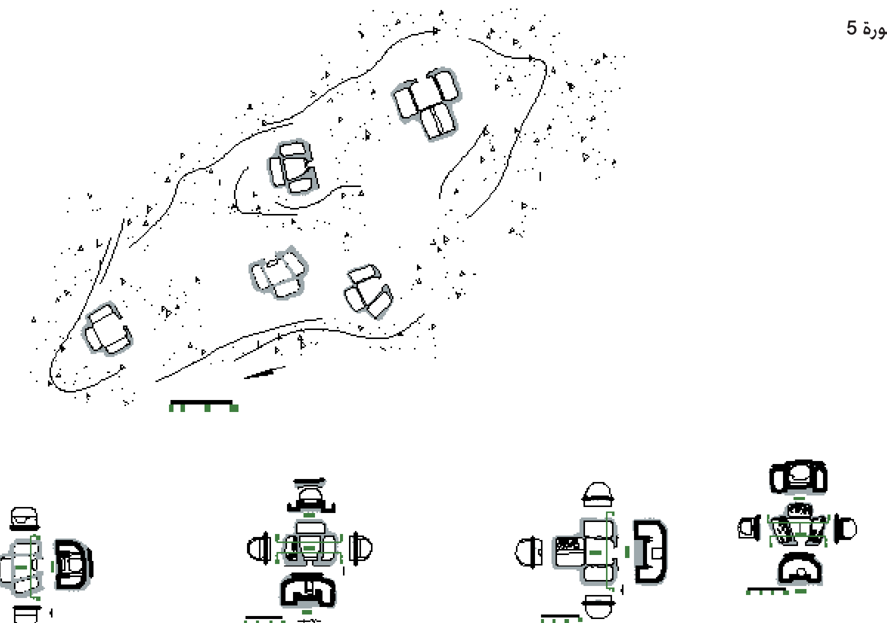

الصورة 2


الصورة 3

سطح الأرض، قبورها(المعازب) على شكل أحواض غائرة في الجدران تعلوها حنيات أو أقواس في أغلب الأحيان. ارتفاع المدفن يتروح بين130 - 200سم . (الصور3) لا يوجد للمدخل اتجاه ثابت وهو عبارة عن فتحة قد يصل ارتفاعها إلى المتر وعرضها إلى 80 سم، كانت تغلق بألواح حجرية أو مجموعة حجارة، يتم من خلالها النزول، عبر درجة واحدة أو أكثر، إلى أرضية بهو الحجرة الذي ينخفض منسوبها بحدود المتر عن المدخل، (الصور4) وشكل البهو له أكثر من شكل منه المستطيل والمربع أو شبه المنحرف، طول أضلاعه يتروح بين 75 سم ليصل لقرابة المترين وقد يصل 250 سم. تتوزع حوله ثلاثة معازب من الجهة اليمينية واليسارية والواجهة. وتعلو المعازب حنيات أو أقواس. في كل معزبة قبر واحد يفصله عن البهو جدار، ارتفاعه قرابة 60 سم وعرضه 20 سم، وينخفض منسوب القبر أحياناً عن مستوى أرضية البهو، قرابة 70سم، أما طول القبر فقد يزيد عن المترين وعرضه عن المتر.(صورة 5)

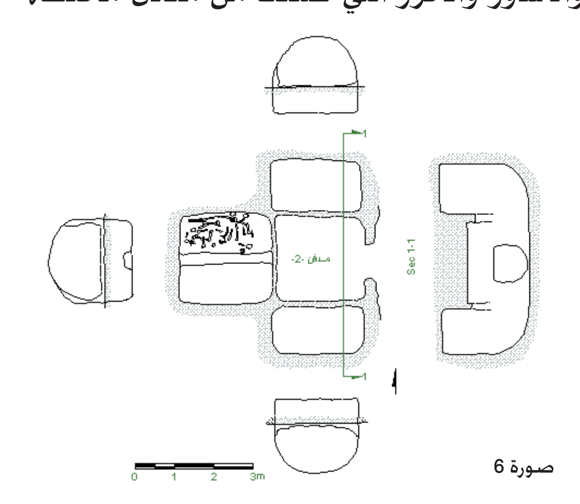

الصورة 4

صورة 5



يشذ عن هذا الشكل مدفن واحد فقط (رقم 2) له نفس المخطط ولكن واجهته الداخلية تحتوي على قبرين طوليين وليس على قبر واحد. (صورة6)

يحتوى كل قبر على عدد من الهياكل العظمية(4-8هياكل) سجيت فوق بعضها البعض، أو جمعت العظام في زوايا كل قبر لوضع الجثث الجديدة. وتنتمي هذه الجثث لنساء ورجال من الراشدين والأطفال. وقد لوحظ وجود بعض بقايا الأقمشة على بعض الحلي والأثاث المرافق للجثث. أما بالنسبة للأثاث الجنائزي فقد كان غنياً بعض الأحيان فتضمن حلي مثل الأقراط والخواتم والأساور والخرز التي صنعت من معادن مختلفة

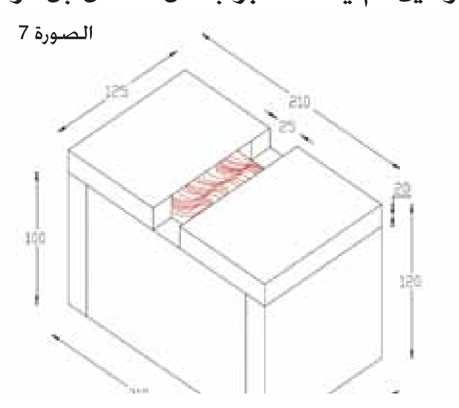


صورة 6

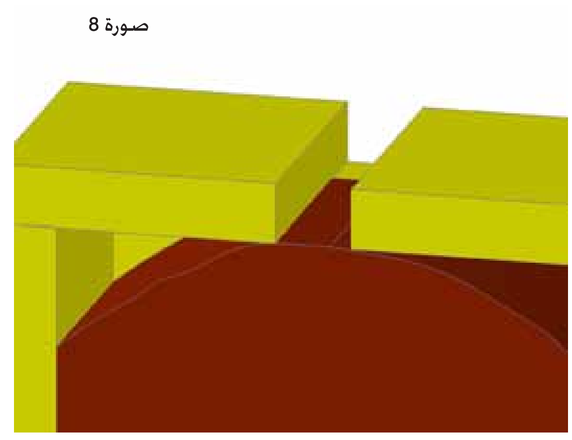
منها الذهب والبرونز والحديد والزجاج، إضافة لأوان فخارية من بينها صحن وإبريق صغير. كما وجد في أحد قبور المدفن المكتشف عام 2007، بقايا مسامير لتابوت خشبي مما يشير لحالة دفن مختلفة أيضاً عن الحالات التي عرفناها في داريا، حيث دفن الميت مع تابوته.

النموذج الثاني: وهو قبر عادي إفرادي وجد قرب أحد المدافن الجماعية اتجاهه شرق غرب بني من ألواح مشذبة من الحجارة الكلسية القاسية طول اللوح يزيد عن المترين وعرضه يقارب المتر وارتفاعه المتر، وسماكته من 22سم، (صورة7) وأغلقت فتحة القبر بألواح أصغر حجماً، وقد جرى الدفن على التربة الطبيعية. بينما تألف الغطاء من لوحين لم يغلقا القبر بشكل كامل بل تركت

الصورة 7



صورة 8



مسافة مفتوحة بينهما في وسط القبر يصل عرضها لـ25سم، كان الهدف منها صب السوائل ورمي التراب داخل القبر. (صورة 8) ويبدو أننا أمام حالة استثنائية، فقد تبين تعرض الجثة للحرق بصب الزيت عليها لكن الحرق لم يؤد إلى احتراق الجثة بشكل كامل، وربما كان السبب نقص الأكسجين بسبب الدخان الكثيف وعدم وجود غير تلك الفوهة لدخول الهواء. بعد ذلك تم ردم القبر بالأتربة حتى وصل إلى مستوى فتحة السقف التي أغلقت بحجارة غشيمة صغيرة الحجم. وقد أمكن مشاهدة آثار الحريق واضحة على الجدران الداخلية للقبر وعلى الغطاء من الداخل وعلى العظام.

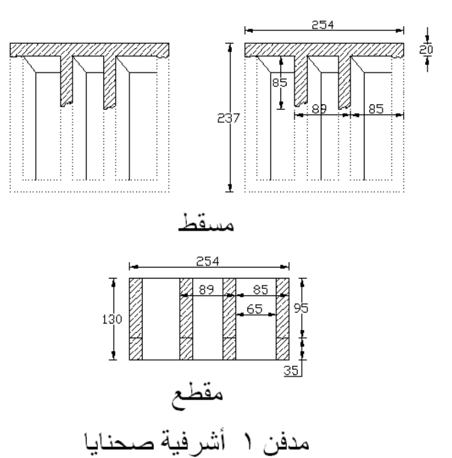
ثانياً- مدافن أشرفية صحنايا:

عثر في الأشرفية على مدفنين، الأول وجد قرب مدرسة الشويفات عام 2007 إلى الجنوب من قناة الوز والثاني إلى الغرب من البلدة القديمة.

صورة 9

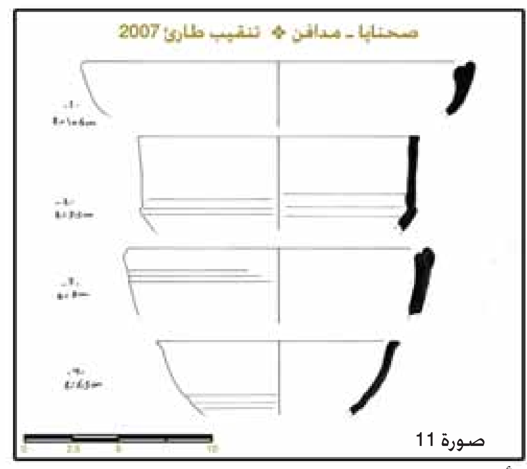


تعرض المدفن الأول للتخريب بفعل التجريف، ولم تبق إلا بعض الأجزاء التي توضح شكله العام. ويبدو أن المدفن وضع بعد حفر مقطع في التربة يزيد عمقه عن المترين، ثم بنيت القبور بشكل متلاصق، جدرانها مشتركة، مما يعني أن المدفن بني في وقت واحد من ألواح حجرية كبيرة مشذبة جيداً. (صورة9) يبلغ طول الجدار الشمالي المؤلف من لوح واحد 254 سم وارتفاعه 130سم، وسماكته 18سم، ومن المعتقد أن اللوح الجنوبي (المفقود) كان له نفس الأبعاد، فيما بلغ طول الجدران الجانبية، التي تألفت من أكثر من مداماك، حوالي 2م. أما بالنسبة للألواح التي كانت تغطي القبور فهي مفقودة منذ زمن قديم. (صورة 10) أما أرضية القبور فهي التربة الطبيعية التي جرى الدفن عليها مباشرة. وجدت في القبور بقايا هياكل عظمية وجماجم، تعود لرجال ونساء وأطفال، تم تجميعها في الزاوية الجهة الغربية من القبر الأول وكذلك القليل منها في القبر الثاني في حين لم يعثر على أي منها في الثالث. إن تجميع الهياكل العظمية في مكان واحد من القبر يعطينا الدليل الواضح على استخدام طويل الوقت لهذا المدفن الذي من المعتقد أنه كان يخص عائلة بعينها ذات وضع اجتماعي واقتصادي مميز. عثر بين هذه العظام على عدد من اللقى الأثرية الكاملة وغير الكاملة من بينها عدد من المدامع الزجاجية وعدد من الأساور المعدنية المختلفة الأشكال والأحجام وبعض الأطواق والنقود



مدفن ١ أشرفية صحنايا
مسقط - مقطع

صورة 10



صورة 11

والأجراس الصغيرة والخواتم الحديدية والخرز وبعض الكسر الفخارية.

كما عثر على عدد من الكسر الفخارية، وهي بمجملها أجزاء من صحاف وزبادي مختلفة الأشكال بعضها ذو لون قرميدي مائل للزهري أو ذات لون بني. وهناك جزء من جرة متوسطة الحجم لونها بني فاتح عليها زخارف نباتية رسمت على شكل خطوط غائرة بواسطة الحز، إضافة لجزء من جرة مضلعة. (صورة11)

أما المدفن الثاني فقد عثر عليه عام 2010 وهو عبارة عن قبر عادي اتجاهه غرب شرق، بني من الحجارة البازلتية المقصبة، طوله 230سم وعرضه 140سم وعمقه 110سم وتم تغطيته بستة ألواح حجرية. وقد دفنت فيه أربع جثث وسجيت على الظهر في حين تم وضع الرأس في الجهة الغربية والوجه نحو الأعلى أو الشمال. أما اللقى فلم يتم العثور على أي من الأثاث الجنائزي في هذا المدفن. (صورة12)


صورة 12

ثالثاً. دراسة المعطيات والنتائج[8]:

استناداً للمعطيات المادية والأثرية التي وفرتها أعمال التنقيب يمكن أن نستخلص الملاحظات والنتائج التالية:

1. تتبع مدافن داريا التحت أرضية، النسق المعتاد من الأبنية الجنائزية في سورية، وكذلك في النصف الشرقي من الدولة الرومانية. وهي نوع من الحفر المقببة التي لا يوجد لها إلا القليل من النظائر المشابهة ومنها بعض مدافن منطقة القنوات بدمشق التي تم تأريخها من القرن الأول حتى الرابع للميلاد، وأحد مدافن بلدة دمر، ويرجع للقرن الخامس وحتى أواخر القرن السادس و مطلع القرن السابع للميلاد. ويوجد شيء من الشبه لها مع مدافن وجدت في دمشق قرب وداخل الحرم الجامعي وفي حي المجتهد، ويعد مدفن منطقة الميدان هو الأكثر شبهاً لها(انظر: الحوليات 52/51). ويوجد نظيراً لها في تل السن بمنطقة الفرات الأوسط قرب دير الزور الذي نقب من قبل بعثة إسبانية، أما خارج سورية فيوجد نظيراً لها في بعض المناطق الفلسطينية. وبالتالي نرى أن مدافن داريا العائلية استخدمت خلال فترة طويلة امتدت من القرن الثالث حتى أواخر القرن السادس للميلاد، وكذا مدفن أشرفية صحنايا الأول. في حين يعود القبر الإفرادي الحجري في داريا والمدفن الحجري الثاني في الأشرفية لفترة أبكر وتحديداً للقرن الأول أو الثاني.

2 . كان من المعتاد على هذا النوع من القبور أن يُغطى بألواح حجرية بعد كل عملية دفن، لكن هذا ما لم نجده في أغلب مدافن داريا. كما كان من المعتاد أن يقوم الأقرباء والأصدقاء في مناسبات


صورة 13


صورة 14


صورة 15

خاصة بزيارة القبور من أجل إحياء ذكرى الموتى، وعادة ما كانت توقد في المناسبة المشاعل وهي الأسرجة المليئة بالزيت، وهذا ما لم نعثر عليه في داريا بشكل واضح إلا في حالة نادرة، حيث عثر على سراج فخاري واحد[9]، وعلى بعض الكسر مما يمكن أن يكون جزءاً من سراج زجاجي في المدفن الأول المجاور لحارة الحمام. (صورة13)

3 . كانت العادة في المدافن الجماعية أن يسجى عدة موتى في كل قبر، مما يعني أن هذه المدافن كان يعاد استخدامها على الدوام مع مرور الزمن من قبل عائلة بعينها. وقد تبين لنا أحيانا وجود طبقتين أو أكثر من الهياكل المتوضعة فوق بعضها، وأحيانا وجدنا ضمن الطبقة الواحدة عدة جثث متلاصقة مع بعضها البعض. ولهذا من الصعب الحكم فيما إذا كان المتوفون في طبقة واحدة قد دفنوا جميعهم في وقت واحد، أم لا. رغم أن ذلك يبدو ممكناً في بعض الحالات عند وفاة العديد من أفراد العائلات جراء الأوبئة. ولكن المرجح أن كل جثة جديدة كانت توضع إلى جانب ما سبقها من جثث في القبر. أما الجهة التي كان يوضع فيها القبر فهي مختلفة باختلاف جهة القبر. (صورة14)

4 . حرق الجثث: بالنسبة لعادات حرق الجثة كتقليد من تقاليد الدفن فهو أمر معروف في المواقع السورية منذ الألف الثاني قبل الميلاد مثل ماري وآلالاخ(تل عطسانة)، كما عرف في الألف الأول في المواقع الآرامية ومنها تل حلف(جوزن) وزنجرلي(شمأل). وقد استمرت هذه الممارسات على ما يبدو قائمة خلال الفترات اللاحقة. ورغم أن العرف السائد خلال العصر الروماني هو تسجية الجثة في القبر دون حرق إلا أن بعض الحالات التي رصدناها في ريف دمشق تعد خرقاً للتقاليد المعروفة، ومنها مدافن بلدة حينة التي عثر فيها على عدد من القبور العادية الفارغة إلا من بعض الرماد وبقايا العظام المتفحمة مع أثاث جنائزي بسيط مثل الأواني الزجاجية وبعض قطع النقود.

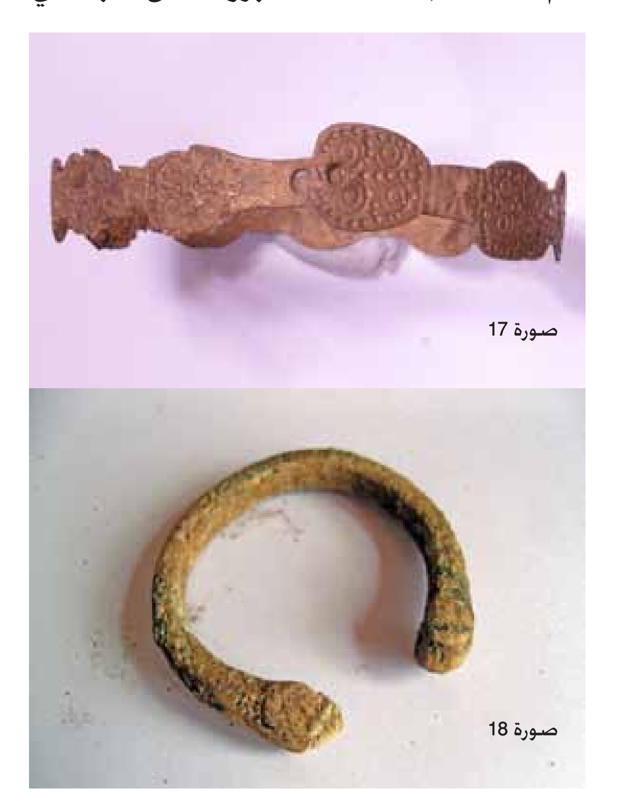
والحالة الأكثر غرابة هو ما صادفناها في داريا القديمة والتي أكدت ممارسة هذا الطقس من قبل السكان خلال نهاية العصر الروماني وبداية العصر البيزنطي. فقد عثر في القبر الإفرادي على جثة تعرضت للحرق وهي داخل القبر عن طريق صب كمية كبيرة من الزيت عليها بعد وضعها مستقية على الظهر، وكان يتم صب الزيت عبر فتحة في غطاء القبر ثم يتلوه رمي الأتربة من خلالها حتى امتلاء القبر، ويبدو أن ردم القبر تم قبل إتمام عملية حرق الجثة بشكل كامل لأن كثافة الدخان لم تسمح بدخول ما يكفي من الأكسجين. كما أنه لم يوضع أثاث جنائزي مع الجثة رغم العثور على بعض الحلي المعدنية ومنها ما صنع من الذهب التي كان يرتديها المتوفى وهو هنا إمرأة كبيرة العمر، من الواضح أنها من علية القوم. (صورة15) ومن المتوقع أن لا يكون الحرق بهذه الطريقة ناجم عن إتباع طقوس دينية موروثة بقدر ما يمكن أن يكون اختياراً إجبارياً تم اللجوء إليه بسبب الموت الذي قد يكون ناتجاً عن وباء معد، أو ربما لوصية المتوفى أو انحداره من أصول غير محلية لها تقاليدها التي تبيح هذه الممارسة، هذا إن


صورة 16


صورة 19

لم يكن هناك أسباب واحتمالات أخرى، التي ومهما كانت فهي لا تقلل من أهمية هذه الحالة النادرة التي تحتاج إلى التعمق في دراستها.

5 . درجت العادة في منطقة المشرق العربي، في العصر ما قبل المسيحي، على إلباس الميت الثياب استعداداً للدفن وكان لابد أن يوضع برفقته حد أدنى من الأثاث الجنائزي ومما كانوا يرتدونه من لوازم وحلي، وهذا ما ينطبق على عدد من قبور منطقة داريا، التي عثر على بقايا أقمشة ملتصقة على بعض الحلي هذا ضمن القبر الإفرادي المكتشف عام 2007، إضافة لأحد قبور المدفن الجماعي المكتشف بنفس العام(صورة 16).


صورة 17

صورة 18

6 . الأثاث الجنائزي، تتميز مدافن داريا بغناها بالأثاث الجنائزي والتقدمات الدينية، إذ أمكن الكشف عن مئات القطع المعدنية وعشرات القطع الزجاجية والقليل من الأواني الفخارية وكذلك ما يزيد عن ألف خرزة زجاجية وحجرية وعظمية. أما حالة اللقى المعدنية، المكونة غالباً من المعدن الملون البرونز، (وربما النحاس) ومن الحديد فقد كانت سيئة. وهناك بعض القطع التي تعرضت للتآكل بشدة وهي سريعة التكسر، وقد يصعب ترميمها. أما تأثر الأواني الفخارية بالعوامل الطبيعية فكان بصورة أقل، في حين أدى ضغط التربة لتكسر بعض الأواني الزجاجية الكبيرة إلى قطع كثيرة، بينما بقيت الأواني الأصغر بحالة رائعة.

أ. الأساور والخلاخيل: يبرز من بين القطع المعدنية عدد كبير من الحلي الحلقية الشكل، ومن مجموعة حلي النساء هناك الأساور وخلاخيل الأرجل.(صورة17) وتبين الأساور المتآكلة الملتصقة بشدة مع بعضها أنه كان من المرغوب تزيين الساعد بمجموعات كثيرة من الأساور وجزئياً بأساور سميكة على شكل أسياخ. لقد ارتدت نساء داريا وزناً ثقيلاً من الحلي المعدنية، التي لم يقتصر ارتداؤها على الحياة فقط، بل اصطحبت إلى القبر أيضاً. لقد عرفت هذه العادة في سورية لكن الأمر الملفت هو وضع الخلاخيل في الأرجل، وهي عادة للزينة كانت معروفة أنذاك في سورية وهذا ما توضحه إضافة إلى اللقى بعض مشاهد الفسيفساء التي وجدت في المنطقة ومنها قطعة فسيفساء في متحف السويداء تظهر فيها أرتميس وزميلات طفولتها.


صورة 20

يغلب على الأساور النوع البسيط الشكل الذي له نهايات مسطحة، وأحياناً مزخرفة بخطوط، والتي تمثل رؤوس أفاع، وجد في الكثير منها في بعض المدافن السورية ومنها مدفن الطيبة بريف دمشق. (صورة18) أما الأساور االسميكة ذات النهايات الغليظة على شكل رأس كبش، فهي إحدى الخصوصيات المحلية. (صورة19) إذ لا توجد من ذلك العصر إلا نظائر قليلة لها من حوران ومن شمالي الأردن. في حين تشكل داريا الموقع الأثري الأبعد من الشمال لهذا النوع من الأساور الصغيرة، والتي لا يمكن تحديد تاريخها بشكل دقيق لكنها ترجع لأواخر القرن الرابع وحتى السادس. وقد وجدت أساور برونزية بنهايات رؤوس أكباش مشابهة في بلدة القريا(بالسويداء). وهي تشبه زوجاً من الأساور الذهبية تم الكشف عنه مع قطع حلي أخرى في إحدى الجرار التي اكتشفت في بيروت، ويعود تاريخه لأواخر القرن السادس أو مطلع السابع. ونشير لوجود بضعة أساور زجاجية.


صورة 21

ب ـ الأطواق: ما أطواق العنق والخواتم والأقراط المعدنية فيأتي ترتيبها في داريا من حيث العدد بعد الأساور. وقد كانت أطواق العنق ذات أشكال بسيطة نسبياً صنعت من المعدن الملون، زخرفت بطريقة النقش وأحياناً باللوي. (صورة20)

وتعد أطواق العنق من الحلي النسائية وهي مكونة من خرز وأكسسورات للتعليق مختلفة الأحجام والأشكال والمادة المصنوعة. وتقدم الأعداد الكبيرة من حلي العنق التي صودفت في داريا للمرة الأولى نظرة عامة بانورامية حول هذه النوع من الزينة في سورية الجنوبية من القرن الثالث / الرابع وحتى القرن السادس / السابع. (صورة21) وقد صنعت الخرز من الزجاج أو عجينة زجاجية ومن أحجار شبه كريمة ومن مواد عضوية مثل العظم وربما العاج أو الصدف (صورة22) والكهرمان والمعدن الملون. ويبقى لدينا تساؤل حول مصدر الكمية الكبيرة من خرز الكهرمان، هل جاءت من منطقة البحر المتوسط الشمالية الغربية ومنطقة البلقان، أم جاءت من أماكن متوسطية أخرى؟..


صورة 22


صورة 23

ومن الأشياء التي كانت تعلق بالأطواق مع الخرز، بعض القلائد أو الرصائع وهي نوع من التمائم وظيفتها أن تبعد كل أنواع الشرور عن حاملها. وهناك خرزة مصنوعة من الخزف الأزرق الفاتح لها شكل ساعد مع قبضة يد، وهي تستخدم لدرء العين الشريرة، وقد وجد شبيه لهذه القطعة في مدافن القنوات بدمشق. وخارج القطر وجد ما يشابهها في منطقة الخليج العربي تعود لمطلع العصر الروماني.

وهناك تعليقة أخرى بشكل رقيقة زجاجية زرقاء داكنة شفافة مع خاتم مزين بشكل أسد. ومن غير المؤكد فيما إذا كان يفهم منها القوة والقدرة المتمثلة في الحيوان البري (اعتقاد مسيحي) لدرء الشرور، لأنه لا وجود للكتابة الصريحة المتعلقة بذلك، كالموجودة على قطعة مشابهة كتبت باليونانية (heis Theos) وتعني إله واحد. (صورة23)

ج ـ الخواتم والأقراط: تنحصر الخواتم فهي ببعض القطع البسيطة التي صنعت من الحديد والمعدن الملون، كما توجد بين الأقراط حوالي عشرين قطعة صنعت من المعدن ومنه الذهب، وواحد منها من الفضة. وهي تدل مع غيرها من اللقى الثمينة على هوية الاجتماعية المدفونين الذين ينتمون للطبقة الوسطى من المجتمع المحلي، ومن خلال التمعن في مجموعة الأثاث الجنائزي، غير البازخ، وبناء المدافن العادي غير المكلف، والذي لا يحتوي على أي زخارف، يمكن التوصل لنتيجة مفادها أن البيئة الاجتماعية التي انتمى إليها هؤلاء الموتى هي بيئة عملية أفرادها ميسوري الحال، أقرب إلى التواضع، يعتاشون مما ينتجون ويتسوقون حاجياتهم الأساسية من أسواقهم، والكمالية من أسواق دمشق القريبة منهم. (صورة24)

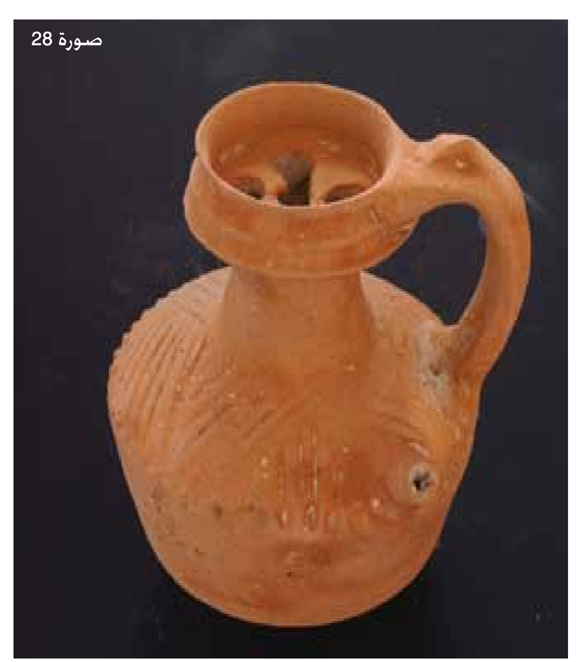
د. الأواني الزجاجية: غلب على الأواني الزجاجية التي وجدت في مدافن داريا والأشرفية البكايات أو المدامع (البطحات) وهي أحجامها متقاربة، وشكلها متشابه تقريباً وهو دائري مسطح وعنق اسطواني طويل(تشبه مضرب التنس الصغير)، لونها سماوي شفاف. كما يوجد نوع آخر من المدامع صغيرة


صورة 24


صورة 25


صورة 26


صورة 27


صورة 28

الحجم ذات الشكل المتطاول الفوهة مخروطية وضيقة عند العنق، وقد لا تكون استخدمت لتحفظ دموع الأحبة المشيعين، بل ربما استخدمت لحفظ الزيت المقدس والعطورات والماء المرقي وغيره. ويوجد مثيلاً لهذه النوع من الأواني في عدد من المدافن السورية ومنها طيبة الكسوة. وهناك نوع من الصحون الكبيرة الحجم ذات قاعدة مرتفعة وجدار قائم. كما وجد صحن صغير ربما لوضع مواد الزينة، وكؤوس اسطونية الشكل لوضع الخمرة المقدسة، يوجد شبيه لها في مدافن حينة العائدة لنفس الفترة تقريباً. وهناك أباريق مختلفة الأحجام والأشكال والزخارف، لها ميزاب وعرى تصل بين أعلى مؤخرة الشفة والكتف، ويتنوع اللون بين الشفاف أو الأزرق المائل للخضرة أو أخضر مائل للأسود. ومن بينها إبريق صغير بعروة، زين عند العنق بأشرطة على شكل خيوط دقيقة. ويلاحظ من خلال الرواسب الحمراء والبرتقالية اللون أن الزجاجيات كانت تحتوي سوائل غير معروفة، ويحتاج الأمر إلى تحليل دقيق لمعرفة محتوياتها ووظيفتها. (صورة25و26)

هـ . الأواني الفخارية: من أهم القطع الفخارية زبدية من فخار التيرا سيجيلاتا القبرصي المزخرف التي تؤرخ في أواخر القرن الخامس أو مطلع القرن


صورة 29

السادس، وبعدما انكسرت إلى قسمين تم رتقها بمشابك، كما تظهر ثلاثة ثقوب مزدوجة على طول الحافة المكسورة. (صورة27) كما وجد أبريق صغير مميز له عروة ومثعب وهو ذو لون قرميدي يحمل بعض الزخارف التي نفذت على الكتف بطريقة الحفر، أما الفوهة فهي على شكل مصفاة لها عدد من الثقوب. (صورة28)

و . المشابك والأبازيم: من الأشياء التي عثر عليها في داريا هناك مشبك ألبسة متكسر وهو من أقدم لقى الموقع ويعود تاريخه للقرن الثاني أو الثالث، ويبدو أن المشابك بعد هذا التاريخ اختفت من ألبسة نساء داريا. وهناك بعض الأبر، وأبازيم أو بكل لأحزمة ولأحذية وهي قليلة العدد مزودة بغلاف متين معيني الشكل ويمكن أن تعد من الملابس الرجالية، ويعتقد أنها ترجع لأواخر القرن السادس، والنصف الأول من القرن السابع. وهناك إبزيم له مسكة حذاء مثمنة تعمل على تدعيم الرباط الجلدي خلف الإبزيم كما أنها تعد زينة في الوقت نفسه. وتعد تشكيلة الأبازيم غير الملبسة في داريا طرازاً للأحزمة في منطقة الكثير من المواقع


صورة 30


صورة 31

السورية ومواقع البحر المتوسط التي ترجع لأواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس، ومنها اسبانيا. كما عثر على مثيل لها في قبر اكتشف في خربة السمرة بالأردن. (صورة29)

ز . الأجراس والصلبان: تميزت بعض القبور بوجود أجراس كانت توضع تبعاً لحجم كل منها في سلسلة العنق أو في الحزام. ويوجد مثال جيد على الأجراس الكبيرة التي كانت توضع في سلسلة الحزام جاءت من أحد قبور موقع جدارا / أم قيس شمالي الأردن، يرجع للعصر البيزنطي. وكانت للأجراس فوائد سحرية فهي توضع لدرء الأذى والشرور عن النساء الأطفال . (صورة30)

ومن الأشياء التي كانت تعلق بالأطواق نجد بعض الصلبان التي علقت إما بواسطة ثقب في طوق خرز أو وضعت في سلسلة صغيرة معدنية. وقد أظهر حاملوا الصلبان الصغيرة على الصدر اعتناقهم للعقيدة المسيحية الجديدة بكل جلاء. إلا أنه لا يمكن الجزم بشكل صريح متى تمت النصرنة في داريا ومتى تم اعتناقها، وذلك بسبب العدد القليل نسبياً من القطع ذات المضمون الرمزي المسيحي الباكر الصريح. (صورة31)

وقد يبدو من الغريب ألا يكون للعقيدة المسيحية والتي أدت للاستغناء عن القبور الفردية، ذلك التأثير على التجهيزات الجنائزية، على ما ظهر. فقد استمر دفن الموتى مع الحلي وأحياناً مع الأواني (من أجل الطعام والشراب الرمزي، وكذلك من أجل زيوت الدهن وغيرها). وهذا يشير إلى أن رغبة سكان منطقة داريا (معتنقي الديانة الجديدة)، بمسايرة عاداتهم الوثنية القديمة، التي دفعتهم لأن يأخذوا معهم بعض اللوازم الشخصية المهمة إلى قبورهم عند الموت، تغلبت على انتمائهم الديني. وربما أرادوا من ذلك التعبير عن مكانتهم الاجتماعية، والتغاضي عما تفرضه التعاليم الدينية الجديدة. ومن هنا نقول أن التعمق في دراسة تفاصيل طقوس الدفن يمكننا من رصد ظاهرة التحول في العقيدة الدينية للسكان من الوثنية إلى المسيحية بداريا التي على ما يبدو استمرت طويلا قبل أن تترسخ، وهي تظهر أن الكثير من العادات والممارسات الوثنية ظلت عالقة فيها حتى بعد مرحلة التحول. وهو ما يعطي شعوراً أن رجال الدين الذين سهروا على تطبيق العقيدة الجديدة كانوا بمنتهى التسامح مع الناس.

في الختام، تعد دراسة الأثار الجنائزية منطلقاً أساسياً لفهم الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني لحياة السكان وطريقة عيشهم وعلاقتهم الداخلية والخارجية. وهي ترصد، بشكل غير مباشر، التطورات والتغيرات التي تطال تفكير المجتمع واتجاهاته. ومن هنا تأتي أهمية التنقيبات الجديدة، وكذلك أعمال المسح الأثري التي جرت وما زالت قائمة، في محافظة ريف دمشق، التي نعتقد أنها ستشكل مادة جوهرية فاعلة ومساهمة حقيقية مهمة جداً في دراسة الأثار السورية ومن ثم استجلاء الصفحات المجهولة من تاريخ هذه المنطقة خلال العصور الكلاسيكية.

ـ مراجع للإستزادة:

ـ علي أبوعساف. مدفن روماني بيزنطي في قرية الطيبة. الحوليات(العدد24). للعام 1974.

ـ ميشيل مقدسي. تقرير عن سبعة مدافن من قرية المليحة من بداية العهد الروماني. الحوليا(37/36) للعام 1986/1987

ـ طوير. قاسم. النتائج الأولية للتنقيب في عشرة مدافن من العهد الروماني في دمشق. الحوليات(20)للعام 1970

ـ ابراهيم. ورود. المدافن المكتشفة خارج سور دمشق القديمة. مجلة الحوليات الأثرية(العدد52/51). دمشق. 2009

A. Sartre- Fauriat,Des tombeaux et des morts. Monuments-Funeraires< Socite et culture en Syrie du Sud Du Ler.s.av. J-C .(2001)11-au vIIe.apr.J.C.1

Von Christoph Eger, und mahmoud hamud, Spatromish-Fruhbyzantinicher Grabbrauch in Syrien, Die nekropo von .(Darayya bei Damasckus;(ANTIKE WELT, 6- 2011

Von Christoph Eger,& Mahmoud Hamoud, Work report - on the research of grave goods of Late Antique tombs in the province of Damascus, spring/summer 2010. GDAM &, German .Archaeological Institute, Damascus

الهوامش

1 - انظر: علي أبوعساف. مدفن روماني بيزنطي في قرية الطيبة. الحوليات(24). للعام 1974.

2 - انظر: طوير. قاسم. النتائج الأولية للتنقيب في عشرة مدافن من العهد الروماني في دمشق. الحوليات(20)للعام 1970

3 - ميشيل مقدسي. تقرير عن سبعة مدافن من قرية المليحة من بداية العهد الروماني. الحوليا(37/36) للعام 1986/1987

4 - كشفت خلال العقود الماضية الكثير من هذه المدافن أثناء تنفيذ المشاريع الحيوية بدمشق ومنها مجموعة مدافن اكتشفت خلال التسعينيات قرب الجامعة مقابل مدخل المديرية العامة للآثار والمتاحف. كما كشف منذ عدة سنوات عن مدفن في نفس المكان ولكن داخل حرم الجامعة أمام مبنى نقابة المعلمين ومدفن آخر في كلية العلوم. قام بأعمال النقيب ورود ابراهيم. كما كشفت بعض المدافن في شارع خالد بن الوليد.. ولأن أغلب الاكتشافات جاء من هذه المنطقة فهذا يعني أن مدافن المدينة خلال المرحلة الرومانية البيزنطية توضعت خارج السور من جهة الغرب وصولاً حتى الحرم الجامعي. كما كشف يامن دبور في صيف 2004عدد من المدافن في منطقة الميدان. وكشف همام سعد ونظير عوض صيف 2006عن مدفن قرب مبنى التلفزيون في الأمويين. انظر الحوليات الأثرية السورية(العدد52/51).

5 - قام بتنقيبها غزوان ياغي وهمام السعد. للمزيد انظر: اكتشاف مدفن روماني في مشفى المجتهد ومشروع الحفاظ والترميم.(مهد الحضارات. العدد الخامس عشر والسادس عشر. دمشق. 2012.

6 - اكتشف تمثال داريا. الوارد ذكره أعلاه. في عقار مجاور لهذه المدافن تماماً. ومن المتوقع أنه كان موضعاً لمعبد روماني قبل أن يتحول لدير مسيحي.

-7 أشكر فريق التنقيب الذي شاركني العمل في بعض أو جميع هذه المدافن وهم: ابراهيم عميري. خالد كيوان. محمد المصري. رجاء بلال. جهاد أبو كحلة. عمر عبد الجليل. خيرات عبد الكريم. محمد صبرة.

8 - نشكر الباحث الإلماني كريستوف إيغر. الذي قام بدراسة عدد لابأس به من المواد الأثرية الجنائزية المكتشفة في ريف دمشق ومنها داريا والتي كانت موضوعاً لمحاضرة ألقيت في معهد الآثار الإلماني قام بترجمتها مشكوراً الأستاذ محمد قدور.

9 - عُثر في أحد مدافن بلدة حينة(56كم) غرب دمشق. على مايقارب 40سراجاً فخارياً.